

تفسير سورة الاحقاف

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَم﴾ تَزِيلُ الْكَتَابِ مِنْ أَمْرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِعْلَ مُسْمًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُتُوا مُعْرِضُونَ ﴿٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَبِّئُونَنَا بِكُتُبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَلُوا مِنْ عَلِيمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِكْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا حُخِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعمة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وَأَجْرُ مُسْمًى﴾ أي: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُتُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتابا وأرسل إليهم رسولا، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غيب ذلك.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿لَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قطعير، إن الملك والتصرف كله لله، عز وجل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ قَبْلَ هَذَا﴾ أي: ماتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بأمرهم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَارَةَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لا دليل لكم نقليا ولا عقليا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: ﴿أَوْ أَثَرَةَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: أو علم صحيح ياثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ أَثَارَةَ مِنْ عِلْمٍ﴾: أو أحد يائر علما. قال ابن عباس: أو بيعة من الأمر. وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصري: ﴿أَوْ أَثَارَةَ﴾: شيء يستخرجه فيشيره. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضا: ﴿أَوْ أَثَارَةَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني الخط. وقال قتادة: ﴿أَوْ أَثَارَةَ مِنْ عِلْمٍ﴾: خاصة من علم. وكل هذه الأقوال متقاربة، وهي راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِكْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أي: لا أضل ممن يدعو أصناما، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول، لا تسمع

بكم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلي ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدري أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة ؟ وهذا القول هو الذي عوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيعذبون فيتأصلون بكفرهم ؟

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أم العلاء - وهي امرأة من نسائهم - أخبرته - وكانت بايعة رمول الله ﷺ - قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون. فاشتكى عثمان عندنا فمرّصناه، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهدتني عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهم؟» فقلت: بأبي أنت وأمي! فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإنني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي!» قالت: فقلت: والله لا أركى أحدًا بعده أبدا. وأحزنتني ذلك، فتمت فرايت لعثمان عينا تجرى، فجننت إلى رسل الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله». فقد انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، وفي لفظ له: «أما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به» (١). وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فأحزنتني ذلك». وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذين نص الشارع على تعيينهم، كالمشرك، وابن سلام، والغميصاء، وبلال، وسراقه، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا بيثر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء.

وقوله: ﴿إِن تَتَّبِعِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: إنما أتبع ما ينزله الله عليّ من الوحي، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين النذارة، وأمرى ظاهر لكل ذي لب وعقل.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ، فَأَمَّا نَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ، فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ، كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا يُنذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرِي لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَنُوا فَلَاحْوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جتكم به قد أنزله عليّ لأبلغكموه وقد كفرت به وكذبتموه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أي: وقد شهدت بصدقه

وصححه الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به .

وقوله : ﴿ قَامَن ﴾ أى : هذا الذى شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن اتباعه . وقال مسروق : قَامَن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنيكم وكتابكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . وهذا الشاهد اسم جنس يعنى عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام . وهذه كقولته : ﴿ وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٣] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] قال مسروق ، والشعبي : ليس بعبد الله بن سلام ، هذه الآية مكية ، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة . رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم ، واختاره ابن جرير . وعن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض : إنه من أهل الجنة ، إلا لعبد الله بن سلام ، قال : وفيه نزلت : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والنسائي (١) . وكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ويوسف ابن عبد الله بن سلام ، وهلال بن يساف ، والسدى ، والثورى ، ومالك بن أنس وابن زيد ؛ أنهم كلهم قالوا : إنه عبد الله بن سلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنِ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُوا إِلَيْهِ ﴾ أى : قالوا عن المؤمنين بالقرآن : لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه . يعنون : بلالا وعمارا وصهيبا وخبابا وأشياهم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء ، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية . وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشا ، وأخطؤوا خطأ بينا ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بِنَاتٍ ﴾ [الانعام : ٥٣] أى : يتعجبون : كيف اهتدى هؤلاء دوننا ؛ ولهذا قالوا : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُوا إِلَيْهِ ﴾ وأما أهل السنة والجماعة فيقولون فى كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة : هو بدعة ؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها . وقوله : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ أى : بالقرآن ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَا لَكُفٌّ ﴾ أى : كذب ﴿ قَدِيمٌ ﴾ أى : مأثور عن الأقدمين ، فيستصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبير الذى قال رسول ﷺ : ﴿ بَطِرَ الْحَقُّ ، وَعَمَّطَ النَّاسُ ﴾ (٢) . ثم قال : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ وهو التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ يعنى : القرآن ﴿ مُصَدِّقٌ ﴾ أى : لما قبله من الكتب ﴿ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أى : فصيحاً بينا واضحا ، ﴿ لِنُبِّئَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : مشتغل على التذارة للكافرين والبطارة للمؤمنين .

قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا ﴾ : تقدم تفسيرها فى سورة «حم، السجدة» (٣) . ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : فيما يستقبلون ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلفوا ، ﴿ أُولَئِكَ اصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ

(١) البخارى (٢٨١٢) ومسلم (١٤٧/٢٤٨٣) والنسائي فى الكبرى (٨٢٥٢) .

(٢) الآية رقم (٣٠) من سورة فصلت .

(٣) مسلم (١٤٧/٩١) .

وَالَّذِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي
 كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية
 بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن، كقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ
 إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ أَيُّهَا الْمُسْمِي ﴾ [لقمان: ١٤] ، إلى غير ذلك من الآيات
 الكثيرة. وقال هاهنا: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا ﴾ (١) أي: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما.
 وروى أبو داود الطيالسي عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: اليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا أكل
 طعاما، ولا اشرب شرابا حتى تكفر بالله. فامتعت من الطعام الشراب، حتى جعلوا يفتحون فاهما
 بالمصا، ونزلت هذه الآية: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا ﴾ الآية. ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه
 نحوه وأطول منه (٢).

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا ﴾ أي: قاست بسببه في حال حملها مشقة وتعبا، من حَامٍ وغشيان وثقل وكرب،
 إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿ وَوَضَعَهَا كُرْهًا ﴾ أي: بمشقة أيضا من الطلق وشدته،
 ﴿ وَحَمَلَهُ وَضَعَهُ فَلَاطُونَ شَهْرًا ﴾. وقد استدلل على بهذه الآية مع التي في لقمان: ﴿ وَفَصَّالَةٌ فِي عَمِيْنٍ ﴾
 [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرُّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على
 أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوى صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة،
 رضی الله عنهم.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي: قوى وشب وارتمل ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أي: تنامى عقله وكمل فهمه
 وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي: اللهمني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ
 نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أي: في المستقبل، ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أي نسلي
 وعقبى، ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ هذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى
 الله، عز وجل، ويعزم عليها.

قال الله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ ﴾ (٣) عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴿ أي: هؤلاء المتصفون
 بما ذكرنا، التائبون إلى الله النيبون إليه، المستركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم
 أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل،
 ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه
 وأتاب، ولهذا قال: ﴿ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾. روى ابن جرير عن ابن عباس، عن رسول الله
 ﷺ، عن الروح الأمين، عليه السلام، قال: «يوتى بحسنات العبد وسيئاته، فيقتص بعضها ببعض،
 فإن بقيت حسنة وسع الله له في الجنة» قال: فدخلت على يزداد فحدثت بمثل هذا الحديث قال: قلت:

(١) «حسنا» قراءة الجمهور، وبها قرأ الحافظ ابن كثير.

(٢) المسند للطيالسي (٢٠٨) ومسلم (٣٣/١٧٤٨) وأبو داود (٢٧٤٠) والترمذي (٣٠٧٩).

(٣) «يتقبل - يتجاوز»: قراءة الجمهور، وأيضا الحافظ ابن كثير.

فإن ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿أولئك الذين يتقبلُ عنهم أحسنُ ما عملوا وبتجاوزٍ عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ . وهكذا رواه ابن أبي حاتم وزاد: «عن الروح الأمين. قال: قال الرب، جل جلاله: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته» (١) فذكره، وإسناده جيد لا بأس به.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihanِ اللَّهِ وَيَلْتَمِسُ عَاقِبَةَ اللَّهِ أَمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَرِيقِهِمْ مَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يظلمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدُّنيا واستمتعتم بها فأليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغيرِ الحقِّ وبما كنتم تفسقون ﴿٢٠﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الغور والنجاة، عطف بحال الاشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. وإنما هذا عام في كل من عتق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أفٍّ لَكُمَا﴾ عقهما. وروى البخاري عن يوسف بن مَاهَك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري (٢).

وقوله: ﴿أتعداني أن أُخرج﴾ أي: أبعث ﴿وقد خلتِ القرون من قبلي﴾ أي: قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿وهما يستفيهانِ الله﴾ أي: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿ويلك أمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال الله: ﴿أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. وقوله: ﴿أولئك﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن، وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث.

وقوله: ﴿ولكلِّ درجاةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وليؤفِّقهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ أي: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفالا، ودرجات الجنة تذهب علوا. وقوله: ﴿ويوم يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدُّنيا واستمتعتم بها﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريبا وتوبيخا. وقد تورع عمر بن الخطاب عن كثير من طيبات المآكل والمشرب، وتزه عنها، ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وقرعهم: ﴿أذهبتم

﴿تُنْتَبِرُ﴾ أى: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم، مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أى: بإذن الله لها فى ذلك، كقولها: ﴿مَا تَذُرُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أى: كالشئ البالى. ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ﴾ (١) أى: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث فى قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده، روى الإمام أحمد عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها، فقالت لى: يا عبد الله، إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأنيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. قال: فجلست، فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت فسلمت، فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وها هى الباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيتا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلى ما قال الأول: «مَعْرَى حَمَلَتْ حَتْفَهَا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: «هيه، وما وافد عاد؟» - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما «الجرادتان» - فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرَةَ فقال: اللهم، إنك تعلم أنى لم أجدنى إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه. فمرت به صحابات سود، فنودى منها: «اختر»، فأومأ إلى صحابة منها سوداء، فنودى منها: «خذها رماداً رمدا، لا تبقى من عاد أحدا». قال: فما بلغنى أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا، حتى هلكوا - قال أبو وائل: وصدق - وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد». رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، كما تقدم فى سورة «الأعراف» (٢). وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجعماً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان إذا رأى غيماً - أو ريحاً - عرف ذلك فى وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأته عرفت فى وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض مطرنا». وأخرجه (٣). وروى مسلم فى صحيحه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم، إنى أسألك خيراً، وخيراً ما فيها، وخيراً ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألت، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا

(١) «ترى»: قراءة الجمهور، وكذا الحافظ ابن كثير. (٢) مضى تخريجه هناك عند الآية (٧٣).

(٣) المستد (٦٦/٦) والبخارى (٤٨٢٨، ٤٨٢٩) ومسلم (١٤/٨٩٩).

بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ ، وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا - والله - الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم ، قالوا: يا قومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدى إلى الرشd فأمانا به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن : ١] ، وإنما أوحى إليه قول الجن . رواه البخارى بنحوه، وأخرجه مسلم ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير (١) .

وروى الإمام أحمد أيضا عن ابن عباس، قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا، فيكون ما سمعوا حقا وما زادوا باطلا، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رضى بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبث جنوده، فإذا بالنبي ﷺ يصلى بين جبلى نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذى حدث فى الأرض . ورواه الترمذى والنسائى . وقال الترمذى: حسن صحيح (٢) . وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظى قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل، وإبانهم عليه . فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحسن: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى» إلى آخره . قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين . وهذا صحيح، ولكن قوله: «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة» . فيه نظر؛ لأن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه، عليه السلام، إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو ستين، كما قرره ابن إسحاق وغيره والله أعلم .

وروى أبو بكر بن أبى شيبة عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: انصتوا . قالوا: صه، وكانوا تسعة أحدهم ربيعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ إلى: ﴿ ضَلالٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣) . فهذا مع الاول من رواية ابن عباس يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج .

فأما ما رواه البخارى ومسلم عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبى قال: سألت مسروقاً: من أذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثنى أبوك - يعنى ابن مسعود - أنه أذنت بهم شجرة (٤) فيحتمل أن يكون هذا فى المرة الأولى ، ويكون إثباتا مقدما على نفى ابن عباس ، ويحتمل أن يكون هذا فى بعض المرات المتأخرات، والله أعلم . ويحتمل أن يكون فى الأولى ولكن لم يشعر بهم حال

(١) المسند (٢٢٧١) والبيهقى (٢/٢٢٥) والبخارى (٧٧٣) ومسلم (١٤٩/٤٤٩) والترمذى (٣٣٢٤) والنسائى (١/١١٦٢٤) .

(٢) المسند (٢٤٨٢) والترمذى (٣٣٢٤) والنسائى (٤/١١٦٢٦) .

(٣) المستدرک (٢/٤٥٦) من طريق أبى بكر بن شيبة به ، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى (٣٨٥٩) ومسلم (٤٥٠ / ١٥٠) .

استماعهم حتى أدنته بهم الشجرة ، أى : أعلمته باستماعهم ، والله أعلم . قال الحافظ البيهقي : وهذا الذى حكاه ابن عباس إنما هو فى أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله ، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرههم ، ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله ، عز وجل ، كما رواه عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه (١) .

ذكر الرواية عنه بذلك :

روى الإمام أحمد عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود : هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة ، فقلنا : اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان فى وجه الصبح - أو قال : فى السحر - إذا نحن به يجرى من قبل حراء ، فقلنا : يا رسول الله - فذكروا له الذى كانوا فيه - فقال : «إنه أتانى داعى الجن ، فأتيتهم فقرأت عليهم» . قال : فانطلق ، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم - قال : وقال الشعبى : سألوه الزاد - قال عامر : سألوه بمكة ، وكانوا من جن الجزيرة ، فقال : «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما كان عليه لحما ، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم - قال - فلا تستنجوا بهما ، فإنهما زاد إخوانكم من الجن » . وهكذا رواه مسلم نحوه (٢) . وروى مسلم أيضا عن عامر قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود ، شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود ؛ فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال : لا ، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ، فقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقلنا : استطير؟ اغتيل؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء ، قال : فقلنا : يا رسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : «أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما ، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم » . قال رسول الله ﷺ : « فلا تستنجوا بهما ، فإنهما طعام إخوانكم » (٣) .

فهذه تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدا ، فتلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله ، عز وجل ، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه فى ذلك الوقت . وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم ، كما قاله ابن عباس ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود . وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيدا منه ، ولم يخرج مع النبى ﷺ أحد سواه ، ومع هذا لم يشهد حال للمخاطبة ، هذه طريقة البيهقي . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره ، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم .

وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي ، عن سعيد بن عمرو ، قال : كان أبو هريرة يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته ، فأدركه يوما فقال : «من هذا؟» قال : أنا أبو هريرة . قال : «أتنى بأحجار أستنج بها ، ولا تأتى بعظم ولا روثة » . فأتيت بأحجار فى ثوبى ، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام

(٢) المسند (٤١٤٩) ومسلم (١٥٠ / ٤٥٠) .

(١) البيهقي فى الدلائل (٢ / ٢٢٧) .

(٣) مسلم (١٥٠ / ٤٥٠) .

اتبته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والرؤة ؟ قال: «أتاني وفد جن نصيبين، فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاما». أخرجه البخارى قريبا منه (١). فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك. وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولا من وجه جيد، فروى ابن جرير عن ابن عباس حتى قوله: «وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن» الآية، قال: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجملهم رسول الله ﷺ رسلا إلى قومهم (٢). فهذا يدل على أنه قد روى القصتين.

ومما يدل على ذلك ما رواه البخارى في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشيء قط: «إني لأظنه كذا» إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب جالس، إذ مر به رجل جميل، فقال: لقد أخطأ ظني - أو: إن هذا على دينه في الجاهلية - أو لقد كان كاهنهم - على بالرجل، فدعى له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كالذي استقبل له رجل مسلم. قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتنى. قال: كنت كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنتك. قال: بينما أنا يوما في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت:

الم تر الجن وبلاساها
ويأسها من بعد إنكاسها
ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله» فوثب القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا-جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقممت، فما نشيت أن قيل: هذا نبي. هذا سياق البخارى (٣)، وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر في إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه، والله أعلم» (٤). وهذا الذي قاله البيهقي هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا مستقصى في سيرة عمر.

وقوله تعالى: «وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن» أي:- طائفة من الجن، «يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا» أي: استمعوا وهذا أدب منهم. وقوله: «فلما قضى» أي: فرغ، كقوله: «فإذا قضيت الصلاة» [الجمعة: ١٠]، «فقدضاهن سبع سموات في يومين» [نصك: ١٢]، «فإذا قضيتم ما سبكم» [البقرة: ٢٠٠] «وآلوا» أي قومهم طينين» أي: رجعوا إلى قومهم فأنفروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: «ليخفقوا في الدين وليندروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» [التوبة: ١٢٢]. وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر، وليس فيهم رسل. ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا؛ لقوله: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحي (٥) إليهم من أهل القرى» [يوسف: ١٠٩]، وقال: «وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون

(١) البيهقي في الدلائل (٢٣٣/٢) والبخارى (٣٨٦٠). (٢) ابن جرير في التفسير (٢٢/٢٦).

(٣) البخارى (٣٨٦٦). (٤) البيهقي في الدلائل (٢٤٥/٢).

(٥) «يوحي»: هي قرأة كما مضى بيانه.

الطعام ويمشون في الأسواق» [الفرقان : ٢٠] ، وقال عن إبراهيم الخليل : «وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب» [المتكوت : ٢٧] . فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته ، فأما قوله تعالى في الانعام : «يا معشر الجن والإنس ألم يأنكم رسلكم منكم» [الانعام : ١٣٠] ، فالمراد من مجموع الجنسين ، فيصدق على أحدهما وهو الإنس ، كقوله : «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» [الرحمن : ٢٢] أى : أحدهما . ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم : «قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ولم يذكرنا عيسى ؛ لأن عيسى ، عليه السلام ، أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيات وقليل من التحليل والتحرير ، وهو في الحقيقة كالتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ؛ فلماذا قالوا : أنزل من بعد موسى . وهكذا قال ورقة ابن نوفل ، حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه السلام عليه أول مرة ، فقال : يخ يخ ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى ، يا ليتني أكون فيها جَدْعاً .

«مصدقاً لما بين يديه» أى : من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء . وقولهم : «يهدي إلى الحق» أى : في الاعتقاد والإخبار ، «وإلى طريق مستقيم» : في الأعمال ، فإن القرآن مشتمل على شيتين خير وطلب ، فخيرهُ صدق ، وطلبهُ عدل ، كما قال : «وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً» [الانعام : ١١٥] ، وقال : «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق» [التوبة : ٣٣] ، فالهدى هو : العلم النافع ، ودين الحق : هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن : «يهدي إلى الحق» في الاعتقادات ، «وإلى طريق مستقيم» أى : في العمليات . «فوما أجبوا داعي الله» : فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الظلمين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين ، وتكليفهم ووعدهم ووعدهم ، وهي سورة الرحمن ؛ ولهذا قال : «أجبوا داعي الله وأمنوا به» .

وقوله : «ينفرنكم من ذنوبكم» : قيل : إن «من» هاءنا رائدة ، وفيه نظراً ؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل . وقيل : إنها على بابها للتبويض ، «ويجرنكم من عذاب أليم» أى : ويقيكم من عذابه الأليم . وقد استدلل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة ؛ ولهذا قالوا هذا في هذا المقام ، وهو مقام تبيح ومبالغة ، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لاوشك أن يذكروه . عن ابن عباس قال : لا يدخل مؤمنو الجن الجنة ؛ لأنهم من ذرية إبليس ، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة .

والحق أن مؤمنهم كمؤمنى الإنس يدخلون الجنة ، كما هو مذهب جماعة من السلف ، وقد استدلل بعضهم لهذا بقوله : «لم يظننهم إنس قبلهم ولا جان» [الرحمن : ٧٤] ، وفي هذا الاستدلال نظراً ، وأحسن منه قوله تعالى : «ولمن خاف مقام ربه جنتان . لتأتي آلاء ربكما تكذبان» [الرحمن : ٤٦ ، ٤٧] ، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولى أبلغ من الإنس ، فقالوا : «ولا يشئ من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم ، وأيضاً فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار - وهو مقام عدل - فلأن يجازى مؤمنهم بالجنة - وهو مقام فضل - بطريق الأولى والأحرى . وما يدل أيضاً على ذلك عموم قوله تعالى : «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً» [الكهف : ١٠٧] ، وما أشبه ذلك من الآيات . وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة ، والله الحمد والمنة . وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها

خلقا، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الاليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لانه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن اجير من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وإن اجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله اعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَرْضٍ مَّسْمُومَةٍ﴾ [نوح: ٤٤]، ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء.

ثم قال مخيرا عنه: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بل قدرة الله شاملة له ومحيطه به، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أى: لا يجيرهم منه أحد ﴿أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب، فدَعَوْا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجح فى كثير منهم، وجازوا إلى رسول الله ﷺ وفودا وفودا، كما تقدم بيانه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِمْ بِمَخْلُقِهِنَّ يَفْتَدِرْ عَلَيْ أَنْ يُخَيَّرَ الْمَوْتِ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَّبِعُ فَعَلَّ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أى: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستعدون لقيام الاجساد يوم المماد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِمْ بِمَخْلُقِهِنَّ﴾ أى: ولم يكرهه خلقهن، بل قال لها: «كونى» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائفة مجيبة خائفة وجللة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قال متهددا ومتوعدا من كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى: يقال لهم: أما هذا حق، أفسحر هذا، أم انتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أى: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ثم قال تعالى أمرا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الانبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الانبياء فى آيتين من سورتي «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرسل، وتكون ﴿مِنْ﴾ فى قوله: ﴿مِنْ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله اعلم. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أى: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله: ﴿وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلُومَهُمْ قَلِيلًا﴾ [الزمل: ١١]، وكقوله: ﴿فَمَهْلُومُ الْكَافِرِينَ أَهْمُهُمْ رُبُودًا﴾ [الطارق: ١٧]. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ ضَحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [يونس: ٤٥].

وقوله: ﴿بَلَاغٌ﴾: قال ابن جرير: يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لَيْتَ بَلَاغٍ. والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ. وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.